جامعة باتنة 1-الحاج لخضر-

كلية العلوم الإسلامية

تنظيم قسم اللغة والحضارة الإسلامية ومخبر الفقه الحضاري ومقاصد الشريعة.

الملتقى الوطني: المناهج التعليمية بين الحواضر العلمية والجامعات الإسلامية المعاصرة

عنوان المداخلة: **الرحلة العلمية ودورها في النهوض بالمناهج التعليمة في إفريقية الحفصية (من القرن 07هـ إلى 10هـ).**

محور المداخلة: المناهج التعليمية في الحواضر العلمية الإسلامية

الإسم: أحمد رمز الدين. اللقب: بهلول.

المستوى: طالب دكتوراه

جامعة الانتماء: كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة 1، قسم اللغة والحضارة الإسلامية.

التخصص: حضارة إسلامية.

الهاتف: 0697974425

البريد الإلكتروني: ahmedramzeddine.bahloul@univ-batna.dz

الملخص:

كانت الرحلة في طلب العلم كانت وما تزال من أهم مميزات المسلمين، فقد ورد عن النبي ﷺ: "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع" أخرجه أبو داود، ومما لا شك فيه أن الرحلة كانت سمة كثير من علماء المسلمين وطلاب العلم في كافة أنحاء البلاد

الإسلامية، وعلى مر العصور وحتى في الدولة الحفصية المُؤَرخ لها، فقد كانت الرحلات العلمية تمثل ركيزة أساسية من ركائز الوحدة الثقافية بين بلدان العالم الإسلامي رغم تمزقه من الناحية السياسية، حيث تعد مجالا لتبادل الأفكار بين مختلف الأقاليم: بين تونس والمغرب وبجاية وتلمسان والأندلس ومكة والعراق وغيرها من الأمصار، بهدف توسيع معارفهم وتنقيحها وكذا لقاء العلماء المشهورين بهذه الحواضر، وهذا ما جعل ابن خلدون يعد الرحلة أساس العلم فيقول: "الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"، كما أن معرفة حيثيات الرحلة العلمية وأثرها في ازدهار الحركة العلمية آنذاك العهد من الأهمية بمكان في تطوير الجانب المعرفي والثقافي والمنهجي.

مقدمة:

مثّل التواصل العلمي بين مختلف الأقطار والحواضر الإسلامية في العصر الوسيط حركة فكرية فعالة أسهمت في نقل الإنتاج العلمي والتطور الحضاري إلى مختلف المراكز العلمية الإسلامية، ولم يخرج المغرب الإسلامي عموما وإفريقية خصوصا عن ذلك النسق، حيث أولى الحفصيون أهمية بالغة منذ القرن السابع الهجري للعلم وأهله ومؤسساته، مما جعلها قبلة لطلبة العلم من كل البقاع الإسلامية وعلى رأسها الأندلس، فكون ذلك علاقة تفاعلية كان لها أثرها على الحياة العلمية في إفريقية الحفصية، كما دفعت الروح العلمية والشغف للاستزادة المعرفية لأهل إفريقية لمغادرتها إلى مختلف الأمصار الإسلامية والعودة إلى الديار محملين بالعلوم والفنون التي لم يدركوها من قبل.

حيث جاءت هذه الورقة بموضوع "الرحلة العلمية ودورها في النهوض بالمناهج التعليمية في إفريقية الحفصية"، لنجيب على الاستشكال المتمثل فيما مدى تأثير الرحلات العلمية في الحياة الفكرية والمناهج التعليمية بإفريقية الحفصية؟

أولا: مفهوم الرحلة العلمية

1-تعريف الرحلة العلمية :

أ – في اللغة:

ورد في القاموس المحيط: الرّحْل: مركب البعير، والراحِلةُ: الصالحة لأن ترحل ورَحَلَ أي انتقل ورحلته تَرَحِيلا، فهو راحل من رُحّل.

وفي لسان العرب: الرّحل: مركب للبعير والناقة وجمعه أَرْحُل ورِحَال. ورحَل عن المكان يرحل وهو راحل من قوم رُحّل: انتقل، والتّرحُل والإرتِحال أي الانتقال وهو الرحلة والرُحلة: اسم للارتحال والسير، يقال: دَنَت رحلتنا، ورحل فلان وارتحل وترحّل.

ومنه فالرحلة هي الانتقال من مكان إلى مكان آخر سواء بوسيلة أو سيرا على الأقدام.

ب – في الاصطلاح:

يعتبر مفهوم الرحلة الاصطلاحي قريبا من مفهومها اللغوي، إذ يشتركان بصفة لازمة في فعل الارتحال وهي الحركة، وفي مفهومها العام نتاج مبادرة فردية كما أنها قد تكون جماعية تخترق المسافات البعيدة من أجل تحقيق رغبة ما مرتبطة بحياة الإنسان وإرادته، ومن التعاريف التي تشيد بالرحلة تعريف محمد بن سعيد الحمد: الارتحال من مكان إلى آخر ومن حالة إلى حالة، والرحلة حركة والحركة روح الحياة وأصل الكون، والرحلة سمى أساسية من سمات الكون.

كما أن الرحلة هي المفهوم العام لحساب أي هدف أو غاية في رحلة برية أو بحرية أو جوية، وفي إطار التنوع في الوسيلة تظل الرحلة إنجازا أو فعلا أو مباشرا كما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه والذي تنتهي إليه، فالرحلة ضرورية في الاطلاع واستكشاف الأماكن الجديدة وجمع المعارف على اختلاف أمكنتها وأزمنتها.

2- نشأة الرحلة العلمية :

لما انتشر الإسلام من الجزيرة العربية إلى بقاع الأرض، وبقيت مكة المكرّمة والمدينة المنورة موئل العلماء؛ تُشدّ إليهما الرحال من جميم أصقاع البلاد والمدينة المنورة لتأدية مناسك فريضة الحج، والتزوّد من العلماء.

واتسعت حركة الترحال إلى المراكز العلميّة في العالم الإسلامي طلبا للعلم من علماء أخذوا ا العلم عن صحابة رسول الله ﷺ أو من التابعين أو تابعي التابعين، وأصبح من المألوف أن يرحل طالب العلم "من بلد إلى آخر ليأخذ عن مشاهير أساتذة عصره".

ومما لا شك فيه أن الترحال في سبيل الدراسة والعلم أمر شائع بين طلاب العلم في المغرب، مثلما كان شائعا في الشرق والغرب.

ولا عجب إذا لقينا معظم الرحلات العلمية تتجه من المغرب إلى المشرق وذلك لوجود عدة أسباب تعود لعدة عوامل منها:

1 – وجود الديار المقدسة في المشرق.

2 – كثرة العلماء الذين كانوا مقصدا لطلاب العلم من كل البقاع، إضافة إلى كون مركز الخلافة في الشرق.

3 – لما كانت تحتوي عليه المدن المشرقية من مكتبات ومدارس تضم الكتب القيمة والمؤلفات العلمية النفيسة.

ويقول ابن خلدون: "إن الرحلة في طلب العلم ولقاء المشايخ مزيد كمال في التعلم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة... فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال".

وأتاحت قوافل الحجاج والتجار السبل أمام طلبة العلم ليتلقوا العلم عن العلماء في الجزيرة العربية والحواضر الإسلاميّة، وأن يتبادل طلبة العلم معلوماتهم أثناء السفر في قافلة واحدة، وأن يدرسوا على العلماء الذين ينتقلون مع القوافل إلى مناطق أخرى.

وأصبحت قوافل الحج والتجارة خير رفيق يصاحبه طلبة العلم في السفر إلى حواضر العلم. وبهذه الوسيلة سافر العديد من طلاب العلم الذين كانوا يجمعون بين التجارة وطلب العلم.

أ -عوامل تطور حركة الرحلة العلمية

ومما أسهم في تطور حركة الترحال في طلب العلم الأمور التالية:

1 - حثُّ النبي ﷺ أمته على طلب العلم والخروج في سبيل تحقيق ذلك؛ فقد ورد عنه أنه قال: "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع"، وقوله ﷺ: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة".

2 – اشتراط المحدثين على طلبتهم الرحلة كأحد طرق إتقان الحديث وعلومه، وإذا كان العرب يرحلون للبادية لالتقاط اللغة بصورتها الصافية بعيدا عن اللحن والدخيل، فكذلك المحدثين اشترطوا الارتحال من مكان إلى آخر، ومن عاصمة إلى أخرى، بحيث يرحل المحدث وراء المحدثين الكبار، وينزل إليهم ويقيم عندهم سنة أو سنوات.

3 – إيلاء فكرة الأخذ عن العلماء والجلوس إليهم أهمية في التعليم، فلم يكن يكتفي الطالب بقراءة مصنفات الأستاذ وحده، وإنما كان لابد أن يقرأها عليه أو يسمعها منه حتى يعتبر ثقة في مادته وحجة في عمله، وبدون ذلك لا تصح روايته، ولا يوثق قوله.

4 – كان الدافع السياسي يحتل جزءا مهما في الرحلات المغربية، ذلك لأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت تمارس تأثيرها في العامة والخاصة ومنهم العلماء بحكم أن العلماء كانوا يشكلون نخبة المجتمع فقد كان يتم استخدامهم لأغراض تقتضيها الحياة السياسية أو الروابط الدبلوماسية بين الدول.

ورغم الخلافات المذهبية في المغرب، فقد كان الغالب أن الحكام لم يضعوا أمام حركة العلماء في دولتهم أية عوائق، كما سمحوا للوافدين من العلماء بالإقامة في ربوع دولتهم، والتمتع بكل المميزات التي يتمتع بها أقرانهم من أهل العلم في المغرب.

5 – السفر للعلاج أو الاستشفاء أو إراحة النفس من العناء وتخليصها من الغم والهم كالارتحال إلى الأرياف وقد تكون هربا من طاعون أو وباء أو تلوث.

ثانيا: الرحلة العلمية ودورها في الحركة الفكرية بإفريقية الحفصية:

بلغت إفريقية شأواً كبيراً في تشجيع العلماء وطلبة العلم بفضل دعم الحكام الحفصيين للعلم، واهتموا بتأسيس المكتبات مثل مكتبة جامع الزيتونة والتي اشتملت خزائنها على نفائس الكتب بلغ عددها ستة وثلاثين ألف مجلد، وتميز حكام بني حفص بميولهم إلى الأدب والتاريخ والتراجم، وقد أولوا عناية كبيرة بشأن دولتهم.

وجه حكام بني حفص عنايتهم إلى الاهتمام بجمع الكتب من خلال إنشاء المكتبات التي احتوت على آلاف المجلدات أسهمت في نشر المعرفة في الأوساط الشعبية ومن أمثلتها مكتبة زاوية أولاد سهيل بصرمان بالبلاد الطرابلسية، ومكتبة مدرسة المعرض بتونس وغيرها كثير، وقد حظيت الدراسات

التاريخية في العهد الحفصي بتشجيع أولي الأمر، حيث حرص الحكام على تدوين الأحداث التاريخية المهمة من باب الاعتزاز والفخر، وكانوا يكافئون خاطر الكتاب ذوي القلم والسيال ممن كتبوا أمجاد دولتهم، وظهر في عصر المستنصر الحفصي فن التاريخ الرسمي، ورائده الكاتب أحمد الغساني.

مما شَجّع الرحلة العلمية نحو الدولة وخارجها للاستزادة والعودة للإفادة، فغدت إفريقية من الحواضر والعواصم الثقافية الكبرى التي خَرّجَتْ جيلا من العلماء والكتّاب.

1 – الرحلات العلمية :

أ – هجرة العلماء والطلبة إلى إفريقية:

لم تكن الرحلة موجهة فقط نحو الأمصار المختلفة بل هناك من الطلبة والعلماء من مختلف البلدان الإسلامية اختاروا تونس الحفصية للأخذ عن علمائها، خاصة أنها كانت تعج بعلماء كثر في مختلف التخصصات، وبمؤسسات تعليمية من مدارس ومساجد وربط كانت محط إقامتهم بها فالرحلة.

توافد الأندلسيون على بيئات المغرب الثلاث منذ القرن السادس الهجري واستمرت هجراتهم متواصلة، وشملت هذه الهجرة العلماء والأدباء والكتاب، وقد تبوأوا الصدارة وبخاصة على الصعيد العلمي، وقد كان لتونس عاصمة الدولة الحفصية النصيب الأكبر من هذه الهجرات بحكم العلاقات الودية بين البلدين مما أدى إلى استقرار العلماء والأدباء الأندلسيين بها، ولما وجده هؤلاء من أمن واستقرار في ظل الدولة الحفصية، وهربا من الأوضاع الصعبة التي كانت تعانيه الاندلس، منها حصار النصارى للأندلس، وسقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى.

وزادت الهجرات عندما بايع أهل الأندلس المولى أبا زكريا، ومنذ ذلك الحين بدأ شأن هذا الأمير يعظم، وبدأت تعقد عليه الآمال، حيث استغاث به أهل الأندلس وهاجر نخبة من أدباء وشعراء الأندلس إلى تونس نظرا لما وجدوه من اهتمام من طرف أميرها بالعلم والأدب، كالشاعر (ابن الآبار القضاعي) الذي غادر الأندلس في البداية متوجها إلى أبي زكريا الحفصي (625-647هـ) رسولا عن والي بلنسية المحاصرة، طالبا العون لفك الحصار عنها ورد عدوان الممالك النصرانية، ثم رجع بعد سفارته تلك إلى بلاد المغرب الأدنى.

إذن كانت الاضطرابات السياسية في الأندلس دافعا هاما لكثير من الأدباء الأندلسيين للهجرة إلى تونس، ولقد كان لهم مكانة كبيرة في بلاط الحفصيين، وأثروا في أدباء المنطقة وسلاطينها، وذلك لما نقلوه إليهم من علوم، وما نشروه من فنون.

ومن الشخصيات الأندلسية المهاجرة نذكر على سبيل المثال لا الحصر: (أبو إسحاق القرموني المالقي) نزيل تونس وصفه ابن رشيد بالشيخ الكاتب الأديب الحسيب الفاضل الكامل الرواية المسند، و(أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي الأندلسي ت 633ه) كان نحويا ولغويا متعدد الفنون، و(أبو الحسن حازم بن محمد الغرناطي ت 684ه) الفقيه الشاعر هاجر تاركا الأندلس، واتجه نحو المغرب الأدنى واستقر بتونس.

ولقد أسهمت وفرة المؤسسات التعليمية كالمدارس والمكتبات والخزائن الموجودة في تونس أثناء حكم الحفصيين في توافد الكثير من طلبة العلم من كل حدب وصوب للاستفادة من ذخائرها وكنوزها المعرفية وعلى رأسهم طلبة المغرب الأوسط المولوعون بحب الاطلاع والمعرفة.

ومن بين المدارس التي أنشأها بنو حفص ووزراءهم والتي كانت تحتوي على مكتبات زاخرة بالمؤلفات العلمية؛ التوفيقية والعنقية ومدرسة ابن تافراجين ومدرسة القائد نبيل بوقطاية ومدرسة المعرض التي تحتوي على كتب نفيسة في كل فن من فنون العلم، وقد زود كثير من علماء الدولة الحفصية وأدبائها هذه المكتبات بمؤلفاتهم، وبفضل هذه الوفرة من المكتبات والخزانات استطاع المغرب الأدنى أن يجلب أنظار المغرب الإسلامي وخاصة منهم أولئك المتعطشين لحب الاطلاع والاستزادة العلمية من علماء المغرب الأوسط بالرغم مما كانوا يمتلكونه من معارف كانوا قد حصّلوها بمسقط رأسهم في بلدهم الأم.

ونذكر من بين جملة علماء المغرب الأوسط الذين رحلوا إلى المغرب الأدنى بهدف تكوين شخصيتهم العلمية:

_ **أبو العباس الغبريني:** (ت 704ه)، ارتحل إلى إفريقية أو المغرب الأدنى للاستفادة من مجالس الفقيهين أبو العباس بن عجلان (ت 678ه) وأبو محمد عبد المجيد (ت 686ه)، كما كان للغبريني تكوين علمي على يد كبار اللغويين كأبي عبد الله التميمي الذي لازمه طويلا، فدرس عليه النحو واللغة والآداب والتصوف، وهو ما ساهم في انتفاع صاحب الترجمة به، وجعل الغبريني يقول عنه: "ما رأيت في علم العربية مثله".

_ **ابنا الإمام:** أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت 741هـ) وشقيقه عيسى بن محمد بن عبد الله أبو موسى (ت 749هـ)، رحلا إلى تونس حيث أتما تعليمهما وأخذا على كبار علمائها وعلى رأسهم ابن جماعة، وابن القضار، والبطرني وغيرهم، وأدركا الشيخ المرجاني من إعجاز المائة السابعة المتوفى سنة (766هـ).

_ **المقري:** محمد بن أحمد بن أحمد التلمساني (759هـ)، من كبار علماء المالكية، ولد وتعلم بتلمسان، ثم ارتحل إلى تونس لمواصلة تعليمه على كبار علماءها وعلى رأسهم الإمام عبد الله ابن عبد السلام.

_ **الشريف التلمساني:** (ت 771) بعد أن تتلمذ على يد علماء وفقهاء بلده، اشتدت عزيمته وتضاعفت شوكته للاستزادة في طلب العلم فانتقل إلى المغرب الأدنى عام (740هـ)، وحضر مجالسه العلمية وأخذ عن مشايخه، أين لقي قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يونس الهواري (ت 749هـ) وهو إمام الفقهاء والنحويين فأخذ عنه واستعظم رتبته في العلم.

وأما من المغرب الأقصى فنذكر من مشايخ ابن خلدون الذين زاروا تونس وتتلمذ الكثير على أيديهم، فكانوا أهلا للتزكية والتفوق وبلوغ الدرجات العلى أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق الفاسي، وصفه العلامة ابن خلدون بشيخ وقته جلالة وتربية وعلما وخبرة وعظمة، ارتحل إلى تونس فلقي القاضي ابن عبد الرفيع، والقاضي أبا عبد الله النفزاوي وأخذ عنهم وتفقه عليهما، كما أخذ أيضا عن أبي عبد الله محمد بن محمد بن الصباغ من مكناسة وكان مبرزا في المنقول والمعقول وعارفا بالحديث ورجاله وإماما في معرفة كتاب (الموطأ) وإقرائه، أخذ العلوم عن مشيخة فاس ومكناسة.

ومن الرحالة الذين زاروا تونس وأرخوا لها في كتبهم:

_ **أبو محمد عبد الله محمد أحمد التجاني:** (ت 717هـ) صاحب "رحلة التجاني" من الكتب المهمة للتاريخ المغربي، يتناول في رحلته النظم السياسية للدولة الحفصية.

_ **ابن رشيد السبتي:** (ت 721) صاحب كتاب "رحلة ابن رشيد" المعروفة ب "ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة".

_ **ابن بطوطة الطنجي:** (770هـ) الذي زار تونس وأخذ عن علمائها، ونزل بإحدى مدارسها وهي مدرسة الكتبين.

ب _ رحلة طلبة وعلماء إفريقية إلى مختلف الأمصار:

لم تقتصر الرحلة العلمية في إفريقية الحفصية على الوفود التي تأتي إليها لطلب العلم، فقد ذكرت المصادر والمراجع الكثير عن أخبار هؤلاء الطلاب التونسيين الذين رحلوا إلى المشرق والحجاز ومصر للاغتراف من منابع العلم، أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

_ **عبد الله محمد بن الخباز المهدوي:** (ت 683هـ) ارتحل إلى المشرق وحج ثم توجه إلى بغداد ولقي فيها جماعة من العلماء، وكان من ذوي المراتب العلية، والده القاضي أبو عبد الله محمد بن الخباز من أجَلِّ أهل زمانه دينا وعلما وفضلا ورئاسة ومقرئا ومفتيا ووواليا في القضاء بتونس من سنة (667هـ) إلى (681هـ).

_ **أبي القاسم بن البراء التنوخي المهدوي:** (ت 677هـ) له رحلة إلى المشرق للحج سنة (622هـ) فسمع بالحرمين الشريفين والقاهرة ومصر والإسكندرية عن جماعة من أفاضل العلماء.

_ **أبو عبد الله محمد بن راشد القفصي:** (ت 736هـ) انتقل من مسقط رأسه قفصة إلى تونس حيث تتلمذ على يد ابن الغماز وأخذ عنه المعرفة، ثم انتقل إلى المشرق فلقي من علمائه ناصر الدين بن المنير، والأبياري وشهاب الدين الغرافي، وتقي الدين العبد، وشمس الدين الأصفهاني.

_ **أحمد بن يوسف الملقب بالتيفاشي:** رحل إلى مصر ودرس بها على يد موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الطبيب الذائع الصيت، ثم ذهب إلى دمشق وقرأ على تاج الدين الكندي، ثم رجع إلى بلده بعد نهله الكثير من العلوم.

_ **ابن خروف التونسي:** رحل إلى المغرب الأقصى ودرّس بجامع القرويين نحو ثمانية عشرة سنة.

2– أثر الرحلات العلمية في المناهج التعليمية :

أ – أثر الهجرة الأندلسية على المناهج التعليمية:

كان لهجرة العلماء والأدباء من الأندلس إلى المغرب الإسلامي الأثر الواضح في كافة الميادين وبخاصة الميدان الثقافي، حيث تميزوا بحبهم للعلم واهتمامهم الكبير به، ولتفوقهم العلمي وانتشار المعرفة بين

صفوفهم، ولامتلاكهم هذه الصفات العلمية المميزة، أدى إلى تأثر سكان بلاد المغرب بهم، فزاد الإقبال عليهم بشكل كبير.

ومما يُلحظ على مناهج التعليم الابتدائي في إفريقية أنها كانت تقوم على حفظ القرآن الكريم مع تعلم الحديث وأساسيات العلم، إلا أنه ارتكز على حفظ القرآن باختلاف رواياته وقراءاته ثم الخط.

فاعتبروا القرآن أصل المعارف الأخرى لما له من أثار بالغة في نفوس الصبيان، إذ يعد الغذاء الروحي الأمثل والصفاء النفسي الأنجع للجنوح والانحراف، لذلك يلزم أن يكون المقدم في الدرس والسابق إلى الفكر كي تظل بصماته باقية في الذاكرة عالقة في الأذهان مُحَصلة في الصدور، رغبة في اكتساب الخير والحكمة وأملا في التماس اليمن والبركة، إلا أنهم تأثروا بطريقة الأندلسيين الذين هاجروا إليهم إثر سقوط مدنهم في يد النصارى، وهذا ما يؤكده ابن خلدون في قوله: " وأما أهل أفريقيّة فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس"، فقد أخذ أهل إفريقية مزاوجة بعض العلوم الأخرى بحفظ القرآن وتمكنهم من الخط عن الأندلسيين على عكس أهل المغرب الذين اقتصروا على تلقين القرآن وحده في أول العمر، حيث يصف لنا ابن خلدون طريقة أهل الأندلس في التعليم فيقول: "وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسّه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط؛ بل يخلطون لها في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب ولا ترسّل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب. ولا تختصّ عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب".

وقد وصف أيضا تأثير المهاجرين الأندلسيين بقوله: " أما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم البربر وتغلبت عليهم الأمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية...فغلب خطهم على الخط الإفريقي وطغى عليه، وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي".

كما ظهر العديد من المؤرخين الأندلسيين الذين اعتنوا بكتابة التاريخ وتدوين أخباره في إفريقية مثل ابن الآبار (ت 656ه)، وابن سعيد الأندلسي (ت 685ه)، واشتهر في القرن الثامن هجري عبد ابن محمد بن عبد البر التنوخي (ت 737ه) والذي ألف كتابا بحسب المنهج الحولي في ستة أجزاء.

وكانت البرامج الفقهية من بين البرامج التعليمية في الكتاتيب منذ عهد الشيخ الفقيه ابن أبي زيد القيرواني (318-389ه) ولا نستبعد أنها كانت تدرس للصبيان في العهد الحفصي فالمنهج التعليمي في الكتاتيب، لم يشهد تغييرا يذكر في تونس منذ زمن ابن سحنون (ت 256ه)، إلى غاية هجرة الأندلسيين إليها، حيث مزجوا مع تحفيظ القرآن شيئا من الأحاديث النبوية كما ذكر ابن خلدون سابقا.

وقد نقحت هذه الطريقة التعليمية بأفريقيّة بما جاء به أبو القاسم بن زيتون (ت 691ه)، ولم تقتصر هذه الطريقة التونسية المنقحة على إلقاء الدروس فحسب، بل نجد مبادئها معتمدة في التأليف أيضا وقد ضبط ابن عرفة الورغمي التونسي (ت 803ه) هذا المنهج في أبيات نظمها وأوصى بها طلبته في قوله:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة بتقرير إيضاح مشكل صورة

وعزو غريب النقل أو حل مقفل أو إشكال أبدته نتيجة فكرة

فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد ولا تتركن فالترك أقبح خلة

فهو ينكر الاقتصار على الاجترار وإعادة النتائج السابقة، ويدعو إلى التعمق في المسائل وكشف الغموض، وإثارة الاستشكالات الجديدة ، كما كان ابن عرفة غير متساهل في منهجه في التأليف، ويعتبر أن التآليف ليست جديرة بهذا الاسم إذا لم تشتمل على فوائد زائدة، وإلا فهو تخسير للكاغد، والأولى لمن لم تتوفر فيه شروط التأليف والتدريس أن يلزم بيته.

فكان التطور الفكري والمنهجي في أسلوب التدريس في إفريقية من ثمرات ذلك الاحتكاك بين العلماء الأندلسيين الذين تميزوا بإعمال العقل والتفكر دون الانغلاق على الحفظ والتلقين الذي شهده المغرب آنذاك العهد.

ب _ الإنتاج العلمي لعلماء المغرب الأوسط بإفريقية:

قدم علماء المغرب الأوسط إنتاجا علميا عظيما بالمغرب الأدنى في كل المجالات العلمية نكتفي بذكر بعض النماذج على ذلك.

1 _ ابن مرزوق الخطيب: (ت 781هـ) حل بتونس سنة (764هـ) فلم يقتصر عمله على تولي الخطابة والتدريس وإنما اعتكف على وظيفة التأليف كذلك منها ما هو موجود ومنها ما فقد، نذكر منها: "برج الخفاء في شرح الشفاء" وهو شرح لكتاب الشفا للقاضي عياض وشرح الأحكام الصغرى لعبد الحق بن عربي الإشبيلي، وفي علم الفلك والتنجيم المعروف بكتاب التنجيم.

2 – ابن أبي عمار المسيلي: (ت 789هـ) رحل من المسيلة بالمغرب الأوسط إلى تونس، من أهم مؤلفاته التي عرف بها نذكر تفسيره الجليل للقرآن الكريم وكان قد قيده عن الإمام ابن عرفة، وهو مؤَلف فيه فوائد كثيرة وزوائد ونكت.

3 – ابن مرزوق الحفيد: (ت 884هـ) كان له صيت كبير في ربوع المغرب الإسلامي حتى أصبح يلقب برئيس علمائه بدون منازع، يعد آية في تحقيق العلوم، جمع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة وبالتالي جمع بين علوم الظاهر والباطن، وبالرغم إسهاماته وريادته في فني المنقول والمعقول، إلا أن كتب التراجم التي ترجمت له اكتفت بذكر أنه خاض ميدان التأليف في المجالين العقلي والنقلي، دون أن تطلعنا على عناوين هذه التصانيف، والتي يعود سبب عدم ذكرها إلى فقدانها أو ضياعها.

كما لا يمكننا أن ننسى تذكر المنهج الموسوعي الذي كانوا يتميزون به، حيث كانوا يكتبون في جميع فنون العلم والمعرفة حتى ولو كان ذلك بقدر قليل، ولكنهم لم يقيدوا أنفسهم بالاختصاص كما هو شأن ابن مرزوق الخطيب وابن مرزوق الحفيد وغيرهم، كما أنهم مارسوا مهنة التدريس بالموازاة مع التأليف حتى تحصل إفادة الطلبة على أكبر قدر وأوسع نطاق ويحفظ علمهم على مر الأيام والعصور.

الخاتمة:

أختتم هذه الدراسة بمجموعة من النتائج التي توصلت إليها:

1 _ أن الرحلة العلمية يدفعها وازع ديني يجعلها عبادة يتقرب بها المرء من ربه، انطلاقا من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على طلب العلم والخروج في سبيله وتقيض له الأجر الجزيل.

2 _ رغم التوتر السياسي الذي كان يعيشه الغرب الإسلامي في بعض المحطات إلا أن ذلك لم يؤثر على الحياة العلمية والتطور الفكري، مما دفع الكثير من العلماء وطلبة العلم إلى البحث عن المناخ المناسب لذلك، وهذا مما يدل على الرقي الفكري في ذلك العصر.

3 _ فتح الحكام والسلاطين أبوابهم للعلماء مما أسهم في تطور الحركة الفكرية بين مختلف الأمصار والحواضر الإسلامية.

4 – الأثر الفعال للهجرة الأندلسية لإفريقية في المناهج التعليمية، حيث أخرجتها من النسق السائد في المغرب المقتصر على حفظ القرآن للصغار دون الاطلاع على باقي العلوم التي تزيد الفهم وتفتح العقل، أما بالنسبة للكبار فقد شجعتهم على تجاوز الاجترار في التأليف والتحليل والمناقشة في الدرس لإعمال العقل من أجل التجديد وتفاديا للتكرار.

5 – تسهم الرحلة العلمية في توسيع الدائرة العلمية والمعرفية إن لم نقل الموسوعية لدى العلماء وطلبة العلم، وتُطلعهم على مختلف المؤلفات الجديدة التي تُبْنى عليها أبحاثهم.

قائمة المصادر والمراجع:

أ – المصادر:

_ابن بطوطة محمد بن عبد الله الطنجي، الرحلة، دار صادر، بيروت، 1964م.

_التجاني أبو عبد الله محمد، الرحلة في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، نشر كتابة الدولة للمعارف، تونس، 1958م.

_ التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه: طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط 1، د ت.

_ التنسي بن عبد الله محمد، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في شرف بني زيان، تح: بوعياد محمد، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1985م.

_ ابن الخطيب أبو عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1973م، ج 3، ص 325.

_ ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، مر: سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، د ط، 2000م، ج 6. التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (طبع باسم رحلة ابن خلدون)، عارضها بأصولها وحواشيها محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2004م.

_ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق، سنن أبي داود، تح: محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ت، كتاب العلم، باب طلب العلم، ج 2.

_ ابن رشيد أبو عبد الله محمد بن عمر، الرحلة، دراسة وتحليل: أحمد حداد، اعتنى به: هيثم جمعة هلال، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط 1، 2003م، ج 1.

_ الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، القاهرة، ط 2، د ت.

_ السجلماسي عبد الواحد، فهرسة الإلمام ببعض من لقيته من علماء الإسلام، تح: نفيسة الذهبي، ديور الجامع، الرباط، المملكة المغربية، 2008م.

_ الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1981.

_ الفيروزابادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1999م.

_ ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن الحسن بن علي بن الخطيب القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التريكي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.

_ ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشره: محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.

_ المقري شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: البيقاعي، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط 1، 1988م. أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2010م.

_ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 11، ط 3، 1994م.

ب _ المراجع:

_ أحمد بن عامر، الدولة الحفصية، دار الكتب الشرقية، تونس، 1972م.

_ برانشفيك روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.

_ ديب صفية، التربية والتعليم في أفريقية الحفصية من القرن 07 هـ إلى 10 هـ، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2021م.

_ رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17 م، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1998م.

_ سعيد عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م.

_ الشامي صلاح الدين، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط 2، 1999م.

_ صبحي الصالح الشيخ، منهل الواردين شرح رياض الصالحين، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م.

_ ابن عامر أحمد، الدولة الحفصية، دار الكتب الشرقية، تونس، 1972م.

_ عثمان حجازي عبد الرحمن، التربية الإسلامية في القيروان في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1997م.

_ الغاشي مصطفى، الرحلة المغاربية والشرق العثماني محاولة بناء صور، الانتشار العربي، ط 1، 2015م.

_ كردي علي إبراهيم، أدب الرحلة في المغرب والاندلس، مكتبة الأسد، دمشق، د ط، 2013م.

_ محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب، أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987م.

_ محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1932م.

_ محمد حسان، وجمال الدين ناديه، مدارس التربية في الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1984م

_ انساعد سمير، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009م.

_ هلال عمار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (14/3هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

_ عبد الوهاب حسن حسني، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، 1964م.

ج _ الرسائل الجامعية:

_ بوعمارة مريم، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأدنى ودورها في الازدهار الحضاري ما بين القرنين (7-9هـ/13-15م)، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2009-2010م.

_ بوكرديمي نعيمة، الرحلة العلمية لعلماء المغرب الأوسط إلى المغرب الأدنى من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجريين، أطروحة دكتوراة في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2016/2015م.

_ مصطفى علوي، تلمسان من خلال كتب الرحالة والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من القرن السابع إلى القرن التاسع هجري، أطروحة دكتوراة في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2015/2014م.

د _ المجلات:

_ علي سويد حنان علي محمد، الكتابة التاريخية بالمغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري - التنوع والتطور -، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 7، عدد 2، 2023م.

_ قطوش نورة، الوضع الثقافي للدولة الحفصية خلال القرن السابع الهجري، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، مجلد 19، العدد 1، جوان 2023م.

_ بن مامي محمد ناجي، مدارس تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني ق 7 هـ، مجلة المؤرخ العربي، العدد 34.